رواية الحسناء

الصداقة والواجب

« آه عَلَيّ حرب مجيدة الخوض غمراتها ! » بهذه الكلمات خاطب الملازم فون رنتوفيلد احد ضباط فرقة هتولر الراعشة والده الجنرال المتقاعد لما كانا جالسين في حديقة بيتهما في عيشبرك التي تطل عَلَى دوقية ريز بدنس برغشند من اعمال طوريخن . ان هذا الجنرال الطاعن في السن كان قد خاض غمرات معامع كثيرة في حروب بروسيا مع النمسا والدنمرك وفي حرب السبعين التي ثار عليهرا بين فرنسا و بروسيا ونال وسام الصليب الحديدي مكافاة له عَلَى البسالة النادرة المثال التي اظهرها في معركة مارسلاتور .

« آه عَلَيّ حرب طاحنة الخوض غمراتها ! » قال كارل مخاطبًا اباه ثانية بلهجة حماسية اما ابوه فتبسم لكلامه هذا ورمقه بعين ملؤها الاعجاب والافتخار ثم كلمه بلطافة قائلاً « يا حبيبي كارل ان كلامك هذا يدل عَلَى انك لا تعرف شيئًا عن حقائق الحروب المحزنة انا اعلم معك بان هناك نشوة سرور تاخذ من الفوارس المتحمس حين هجومه كل مأخذ ولكن مهلاً الى ان يبرد دمك وتقفل راجعًا مقتفيًا اثر الخطوات التي خطوتها حين هجومك . انظر الى الوجوه التي ضبغها اصفرار المنون ! راقب مصارعة الجرحى المحتضرين مع الموت ! اصغ الى انين هذا المتألم المسكين الذي يتوسل اليك لكي تبرد آلامه وتبلّ لسانه بقطرة ماء بارد ! اسمع تجديف ذلك المكلوم التعيس الذي يلعن ساعة ولادته ويطلب اليك ان تعدمه الحياة متى يخلص من عذابه الشديد ! ما رأيك في حالة الارامل والايتام والامهات اللواتي يتكلن ابناءهن ؟ وماذا تقول عن البيوت التي صارت كوم رماد وكانت يومًا قصورًا نخيمة زاهرة بسكانها المسرورين المطمئنين ؟ والحقول التي امست قفرًا يبابًا بعد ما كانت بنابيع ثروة تفل ذهبًا وفضة للالوف المشتغلين فيها الذين كان كل اعتمادهم في المعيشة عليها ؟ آه يا حبيبي كارل ان العبرة ليست بآلامنا نحن بل بالام سوانا التي نلقت الاكباد وتسيل الدمع حتى من عيني اقسى جندي !

« اسمعني فالص عليك شيئًا عن حرب سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ وما سأرويه لك لا يعدّ شيئًا بجانب كل ما اخبرك بنفسي عن « الحروب المجيدة » التي نجمّاها من كل قلبك كما لا يخفى عليك انني كنتُ ملحقًا عسكريًا لسفارتنا في باريس حين اعلان الحرب .

ومع اني كنت جندياً مدرّباً تركت هذه العاصمة لانضم الى فرقتي بشيء من الصعوبة ذلك لاني اثناء اقامتي بباريس كنت تعرفت بفتاة جميلة من احدى المقاطعات الفرنسية اتت الى العاصمة بقصد زيارة عمتها الكونتة دي لافيه . فكنت اجتمع بها اكثر الاحيان واخيراً تصادقنا وتمكنت الصداقة بيننا وكان لي ايضاً اصدقاء كثيرون من خيرة الناس والطفهم وعندي ميل خاص الى هؤلاء الفرنسيين المحمسين . فما ينتهك الآن يمكنك ان تستنتج انه لم يكن من السهل عليّ ان افترق عن الفتاة التي صادقتها فارعني سمعك فاخبرك باي ظروف جمعتني بها التقادير ثانية

« لا حاجة الى ان اسرد لك اخبار الحرب الاولى والانتصارات العديدة التي حصلنا عليها في المقاطعات الشرقية مع اني حصلت بواسطتها عَلَى اعظم فخر تطمح انظار الجندي الالماني اليه اذ ان الامبراطور علق بيده وسام الصليب الحديدي الى صدري . لما تمثلنا عَلَى العدو في شرقي فرنسا عسكر جيشنا امام باريس . اما فرقتي فكانت قسماً من الكتيبة العاشرة في الجيش الذي كان يقوده البرنس فريديرك كارل في محاربة جيش لوار الذي انتصرنا عليه انتصاراً باهراً في معركتين .

« وبعد ما سلمت مدينة اورليان الى جيوشنا انتظمت فرقتنا في عداد حرسها فكنا دائماً منهمكين في صد هجمات قوات جديدة مؤلفة من عساكر غير منظمة ومقاومين فرانك تيروس الذي اقلقنا كثيراً وكبدنا خسائر ارواح لا تقدّر . كان ذلك في شهر كانون الاول في ابرد شتاء رأته فرنسا . وكانت الاوامر قد صدرت الينا بان نتجسس البلاد الواقعة بين بيلفراد وكورسيل . ففي عصيرة احد الايام زحفت بفرقتي الى قرية فرتي لبوا وجعلت القسم الاكبر منهم يعسكر داخل القرية اما انا فاخذت معي اثني عشر نفراً من رجالي وتقدمت قاصداً قصر الكونت دي كروساك . وكان قد تقدمني الى هذا القصر نفري الخاص ومعه نفر اخر مصحوباً بامر من شيخ القرية الى الكونت وبرقعة اخرى مني اخبرته فيها بان الانفار التي معي ستتبع حامل الرقعة بعد قليل . ولما اطمأنت افكاري من جهة انفاري الذين وجدوا راحتهم في البيوت التي بجوار القصر سرت اليه توّاً وبجيبي جاو يشي الذي اعتمدت ان اصحبه معي في ظروف مثل هذه . فاستقبلنا بالباب خادم رسم الحزن عَلَى سيمائه صورة مرعبة اخذنا الى غرفة معدة لكي ننام فيها . فتركت جاو يشي شاز فيها وتبعت الخادم الى الصالون حيث اشار لي بان اجلس وانتظر سيده الذي ذهب ليعلمه بقدومي . فوجدت نفسي في غرفة جميلة مفروشة برياش فاخرة عَلَى طرز ايام لويس السادس

عشر وكل مدة الانتظار صرفتها في التفرج على ما فيها من الاثار النفيسة والاعجاب بدقة صنعها التي تدل على حسن ذوق صانعيها . ورأيت رسم ضابط ذو رتبة سامية معلقاً على الحائط فوق الموقد وز به الرسمي يدل على انه من ضباط نبوليون الكبير . و بينما كنت متفرساً في الصورة بشوق كلي شعرت ان الباب اغلق ورائي بهدو فالتفتُ واذا انا امام مضيفي وجهاً لوجه . فرايته رجلاً قصير القامة ذا هيئة جميلة جليلة وشار بين يضاهيان لحية مهندمة وملامحه تدل على الوقار والرزانة . ولاحظت ايضاً انه لابس حذاء صغيراً جداً ذا بكل فضية كبيرة ودهشت لصغر قدميه وارتفاع كعبي حذائه فانحنيت امامه قائلاً بلهجة مستفهم « لي الشرف بان اتعرف بحضرة الكونت دي لا كروساك ؟ » فانحنى هو ايضاً اعترافاً بتأدبي ثم استأنفت كلامي « وكما تعلمون اني لم ات مخيراً الى هنا بل امتثالاً للاوامر التي لدي » فاجابني :

« انني اعلم ذلك واول واجبات الجندي الطاعة . انا لا اقدر ان اتظاهر بالاحتفاء باي جندي المالي يأتي اليّ في مثل هذا الزمن لكن كل ما في بيتي من اسباب الراحة هو في خدمتك . تفضل واستريح » عند ذلك قدم لي كرسياً لاجلس عليه ثم اخذنا نتحدث . وجعلت كل همي ان احول مجرى الحديث عن موضوع الحرب الحاضرة لئلا امس حساسات جليسي بشيء يكدره . وكنت دائماً اتحاشى مس شعور الذين حولي . ولم اغفل ولا لحظة عن ان اسأل نفسي قائلاً « عجباً كيف يكون شعوري لو انقلبت كفتا الميزان ؟ » فما كان اعظم ذلنا وانكسارنا حينما كانت بروسيا تئن تحت سيطرة نبوليون . و بينما نحن نتحدث عن شدة القحط التي لم يسبق لها مثيل اذا بالخادم يدعونا لمناولة الطعام . فنهضنا حالاً وتقدمنا الى الغرفة التالية حيث اومأ اليّ مضيفي بكل تأدب الى كرسي لاجلس عليه . وكلانا كنا نتحاشى طرق موضوع الحرب ومعرفتي بالاداب الافرنسية واطلاعي الواسع على اسرارها ادهشا الكونت الذي زال منه كل تحفظه مني لما اخبرته باني قد قرات جميع كتابات دي موسه و بلزاك . ولما سمعني اسرد له عدة ابيات من اشعار فكتور هوغو كاد يطير فرحاً . ثم صرخ قائلاً « آه ان ابنتي هي مغرمة جداً بكتابات فيكتور هوغو . انه لشاعر عظيم . ستسر جداً اذا علمت ان بين اعداء بلادها يوجد من يقدر الكاتب الذي تحبه حق قدره » ، ثم اسرّ شيئاً في اذن الخادم الذي ترك الغرفة ولم يمر الا القليل حتى عاد معلناً ان الآنسة ستنضم الينا في الصالون . هذه اول مرة ذكر فيها الكونت ابنته امامي . ولما علمت اني انا كنت سبب غيابها اعتذرت له بلطف

وبنت له كدري لاجل الانزعاج الذي سببته له اذ جعلته يغير ترتيبه المنزلي من غير تعهد وأكدت له باني كنت اكتفي بشيء من الطعام البسيط اكله لوحدي . لكنه اجابني بتأدب ورزانة قائلاً « يصعب عليّ كثيراً ان اترك ضيفي وحده ولو كان من الند اعدائي »

« ولما انتهينا من الطعام رجعنا الى الصالون وعندما فتح الباب امامي وجدت سيدة جالسة بجانب النار لابسة حلة سوداء مثل غيرها من نساء الاشراف حداداً على انكسار فرنسا . ان ظهرها كان الى جهتنا لكن هيئة راسها ورشاقة قدها ذكراني بسيدة اعرفها . ولما سمعت صوتنا نهضت من مكانها والحال وجدت نفسي امام صديقتي غبريل دي كروسالك وجهاً لوجه ! لا اقدر ان اقول من كان اشد اندهالاً لهذا اللقاء غير المنتظر لكنني اوجع انها اظهرت اندهاشاً اقل مما اظهرت انا . انما لحظت لوناً وردياً صبغ وجهها الجميل لكنها اخذت تتمالك نفسها بجهد شديد .

« فصرختُ من دون تفكير « غبريل ... » لكنني رجعت الى نفسي لما شعرت ان والدها يعرفني اليها وكان صوته يأتي ضعيفاً الى اذنيّ كانه يخاطبني من مكان بعيد نظراً لشدة ذهولي واندهاشي . وامتثالاً لاشارة لطيفة منها ردعت نفسي عن الاندفاع الى مصافحتها بشوق وانعطاف واكتفيت بالانحناء فقط .

« وفي هذه الدقيقة خيّل لي انني في باريس بجانب من احبتها نفسي تتطارح احاديث الولاء . كان جميع حوادث الاشهر الماضية محيت من مخيلتي وانه لامر عجيب انني لم افتكر بتة بعلاقة ما بين صديقتي غبريل وكونت كروسالك ووجدت نفسي كانني في حلم لما سمعت صوتها تكلمني قائلة « وهل انت الملازم ونترفيلد الذي نال وسام الصليب الحديدي ؟ » فتشددت لاجيب على سؤالها لكن لساني تلدغ في فمي لما اخبرتها بان ملك بروسيا — ولم يكن قد انتخب امبراطوراً بعد — قد انعم عليّ بهذا الشرف . يا للعجب ! إلى هذا المقدار تهتمّ بي بعد حتى انها لم تزل تسألني عن احوالي ؟ واعترافي الطفل والخجل كاني تلميذ مدرسة صغير لما طلبت منها ان تفيدني كيف بلغها ذلك .

« فاجابتني « ان ضابطين بروسيانيين كانا ... » وبعد تردد قليل استأنفت الكلام كانا عشدنا واخبرانا بان الملازم ونترفيلد كوفيء بوسام نظراً لبسالته ... »

« فشكرتها بنظرة فهمت معناها واكتفيت بذبول عينيها ولون الحياء المذري الذي خضب وجنتيها .

« ورغماً عني دار الحديث بيننا عن الحرب وانكسار الجيوش الفرنسوية وبينت لها

متألماً انني وان كنت من اعدائهم اشعر معهم شعوراً عميقاً واكدت لها انني لو كنت فرنسوياً لحسبت وجود اي موظف عسكري بروسياني كان في بلادي ذلة واحتقاراً و بكلمة واحدة شيئاً لا يعبر عنه . فشكرني مضيفي لاجل شعوري معهم واظهر لي شدة اسفه لعدم اقتداره عَلَى حمل السلاح بعد لمحاربة لاجل شرف فرنسا وقال انه في حرب القرم قاد فرقة لمحاربة الروس لكن طعنه في السن وضعف قواه الجسدية اجبراه عَلَى التخلي عن السلك العسكري والانزواء في بيته كبقية الناس العوام من بضع سنوات . وقال في اثناء حديثه « لكنني لم ازل قادراً عَلَى اطلاق النار وان كنت غير قادر عَلَى قيادة العساكر . آه لو كنت اصغر مما انا الان بضعة اعوام فقط لاخذت بندقيتي وتجولت في الاحراش مقتفياً اثار الاعداء نهاراً ومهاجماً الحرس ليلاً . »

فاجبته عَلَى كلامه هذا معاتباً « ولكن يا سيدي الكونت بحسب كونك جندياً تعلم ان ذلك يعدُّ ارتكاب جريمة القتل عَلَى الاطلاق وخرقاً في المعاهدات المتعارفة بين الامم المتمدنة »

فهز الكونت كتفيه وقال « ان الحرب حرب . » اما ابنته فبرزت الى ميدان الجدال كليوة قائلة بغضب « انَّ كل فرنسي يحب بلاده له كل الحق في ان يحارب لاجلها بالطريقة التي يرى انها المثلى ان كان جندياً او عامياً »

فاجبتها عَلَى كلامها هذا بتأدب قائلاً « انه قد تجبر بعض الظروف المرء عَلَى ان يعمد الى السلاح الذي لديه لردع عدوه عن بلاده ولكن نحن ايضاً علينا ان نحفظ لانفسنا من اعدائنا ونتخذ التدابير اللازمة حتى لا نذهب ضحية الغفلة بين الذين يحاولون ان يفتكوا بنا ونحن راقدون عَلَى اسرتنا او ندع ظهورنا عرضة لنيران الذين يكمنون لنا . لذلك لدينا اوامر مشددة بان نرمي بالرصاص كل عامي يحمل سلاحاً او يتجرأ عَلَى مهاجمة احد من جنودنا ! »

« . اتعدمونه بالرصاص ؟ »

— نعم نعدمه

وكان مركزي حرجاً للغاية وموئماً جداً ومن اعماق نفسي شعرت مع هؤلاء الفرنسيين المغلوبين ولما التفت الى الصورة التي انتبهت اليها حين دخولي الغرفة قلت لاصحاب البيت باعجاب « ان هذه الصورة تخلب لب المتأمل فيها وان في العينين منها جاذبية قوية . »

ـــ نعم(اجابتني غبريل بلهجة الافتخار انها رسم عمي اخي جدي من ضباط نبوليون الاول) فلما علمت ان في نفس هذا البيت يعلق رسم ذلك الرجل الذي يمقته كل بروسي و بالاخص انا صرختُ مندهشاً الجنرال دوشيسن ؟ ؟

« ثم التفت الى الآنسة وقلت لها : اذا كنت لا تغتاظين مني سأروي لك قصة حدثت يوم غزت جنودكم بلادنا وكانت تعيث فيها خراباً . والقصة التي سأرويها لك جرت في ضواحينا حيث ذقنا الذل والهوان الوانا واشكالاً مما لم تذق طعمه امة غيرنا . فبعد ان سلمت هذه المدينة للاعداء اخذ الجنود يفتشون كل بيت بلا استثناء من السقف الى الدهليز واهل المنزل مذعنون صابرون على معاملة غزاتنا الوحشية . واني ان رب احد هذه المنازل دافع عن شرف امرأته التي اهانها احد الضباط الفرنسويين فغضب ذلك الضابط لعمله هذا وسحبه الى دار المنزل وامر الجنود بان يرموه بالرصاص . لكن الجنود ترددوا قليلا في اجراء اوامر ضابطهم القاسية فاخرج هو مسدسه واطلقه بنفسه على ذلك الرجل الشريف البريء . اما امرأته المسكينة لما رات زوجها يقتل امامها اغمي عليها حالاً وبعد ايام قليلة تبعت شريك حياتها الى القبر . وكان لهما صبي صغير بقي حياً الى الان وهو ابني وذلك الضابط الذي ارتكب هذا المنكر ارتقى الى مرتبة رفيعة في الجيش وهو ٠٠٠٠ » ثم نظرت الى الصورة وقلت « وهو صاحب هذا الرسم ٠٠ دوشيسن ! » وهنا امسكت قليلاً عن الكلام ثم قلت « فمن هذه القصة يمكنك ان تتأكدي صدق مقالي يا آنسة باني اشعر مع العدو الذي انا في بلاده . فاطلب منه تعالى ان يمن بسلامه على هذه البلاد التعيسة ! » و بعد ان انتهيت من سرد هذه القصة ساد السكوت علينا ولحظت ان كلاً من سامعي تاثر لسماعها ولحظت ايضاً ان الكونت اخذه القلق . ثم استأذن مني بالانصراف قائلاً : ارجوك ان تعذرني لان لي اوراقاً في مكتبي احب ان انظر فيها . » ولما اراد الانصراف وقفت على قدميّ مشيعاً اياه وعندما اغلق الباب وراءه عبرت الى الجانب الاخر من الموقد ووقفت متأملاً امام غبريل . و بما انني وجدت نفسي مختلياً بصديقتي عزمت على مفاتحتها بشؤون ولائنا القديم . اما هي فرفعت عينيها الساحرتين وارسلت نظراتها الفضالة الي وجهي دون ان ترتد الى الوراء . فخاطبتها قائلاً :

« غبريل اظنك لم تنسي بعد ؟ فاجابتني على الفور : كلا يا سيدي لم انسَ اني امرأة فرنسوية وانك رجل بروسياني . فكان جوابها هذا لي كسطل ماء بارد سكب فوق راسي و بمقدار ما كان الجواب بارداً بهذا المقدار كان رقيقاً . ثم كلمتها بلهجة متشوق: ألا تذكرين

اننا كنا دائماً نجلس سوية في باريس قبل ستة اشهر ونتبادل كلمات الوداد، فاجابتني: ستة اشهر فقط ؟ هل هذا هو كل الزمن الذي مر من ذلك الوقت ؟ اظنه عمر انسان !

« يا غبريل اظنك لم تنسي صداقتنا ؟

« ولما نطقت بهذه الجملة لحظت كأن سحابة حزن كثيفة خيمت على وجهها الجميل ثم ظهر لي كالصبح انها لم تنس تلك الصداقة او بعد ان انجلت هذه السحابة عنها رفعت راسها بتشاغ وازدراء، وقالت: نسيتها ؟ كلا، انك لقاس جداً — لم تعهد ذكرى تلك الصداقة الي ؟ ومع ذلك ... وهنا اغرورقت عيناها وارتجفت شفتاها وارتج صوتها قليلاً ثم استأنفت كلامها ومع ذلك هي ذكرى ساحفظها ما دمت حية ، اقول لك ذلك وان كنت من اعدائك ؟

« اما انا فكنت قد نسيت كل شيء ما عدا كوني واقفاً امام الفتاة التي صادفتها فجاءت لقبلها وامسكت يديها يدي وقلت لها : انك لست من اعدائي يا غبريل ، لكنها سحبت يديها مني ووقفت منتصبة بكبرياء وقالت: ان اعداء ومني هم اعدائي ايضاً، فاجبتها « انني اكره هذه الحروب اكراماً لك يا غبريل بشرط ألا يتكدر صفو وداد ».

فتنهدت قائلة « يوجد فرق كلي بين هذه الظروف والظروف التي كنا نجتمع فيها معاً بباريس انني اكون خائنة لفرنسا اذا فكرت بصداقة رجل يقتلك بمواطني ، فكل ما جرى بيننا في الماضي يجب ان لا نعيد ذكره الى الابد

« لا يا صديقتي غبريل ! لا !

« وذلك يمكن ان يتم متى طرد الفرنساويون كل بروسياني من اراضي فرنسة بسلاحهم الخاص ، الهي ! لماذا ارسلك سوء حظي الى هذا البيت دون غيرك من الرجال ؟

و بينما نحن على هذه الحالة سمعنا الباب يطرق بشدة فنهضنا كلانا من حيث كنا جالسين ثم سمعت الجاويش الذي بصحبتي ينادي قائلاً :

(يا سيدي الملازم ! يا سيدي الملازم !)

(فالتفت الى الآنسة — وكان قد رجع الي رشدي — وقلت لها : اسمحي لي بالذهاب لانني مطلوب ، ولما فتحت الباب نادوني الجاويش بالكلام وقال: يا سيدي الملازم ان الجنرال رجع الينا الآن واخبرنا بانه رأى فرقة كبيرة من الرجال تزحف الى الجهة الشرقية فاجبته بأن اولئك الرجال ربما يقفون حاجزاً في وجه جنود الجنرال شانزي ، ثم اخذت قطعة ورق من محفظتي وكتبت عليها بضعة سطور بعجل ودفعتها الى الجاويش وقلت له ان

يسلمها الى احد الاغوار ويأمره بان يركب بعجل ويأخذها الى اوبرست هلدنستروم ثم صرفته واخبرته باني سأتبعه الى القرية حالاً .

واذ التفتُ لارجع الى الصالون رأيت الكونت واقفاً بباب مكتبه المفتوح (فكم من الزمن كان قد صار له واقفاً هناك وما المقدار الذي سمعه من الكلام الذي دار بيني وبين ابنته لا اقدر ان اقول) ولما رفع نظره اليَّ معتذراً عن غيابه من الصالون بعد رجوعنا من غرفة المائدة . حينئذٍ ودعت الكونت وابنته وبينت لهما باني ساذهب باكراً عند الفجر وشكرتهما لاجل ضيافتهما قائلاً : انني اغتنم هذه الفرصة لتقديم تشكراتي القلبية لكما واتأسف جداً لكوني افارقكما في مثل هذا الحين ثم صافحت الكونت ولما مددت يديَّ لاصافح غبريل حاولت ان استمهلها لترمقني بنظرة من عينيها الفاتنتين لكنهما لم تنظرا الى وجهي بتة حتى انها بخلت عليَّ بجواب لكلماتي الوداعية مع انني تركت يدي في يدها مدة اطول من الوقت اللازم لاداء واجب الرسميات . وكنت عازماً عَلَى ان اجعلها تظهر لي عاطفة ولائية لكنني امتنعت عن محاولة ذلك لانني علمتُ نفسي بالاجتماع بها ثانية .

ثم بعد ذلك نزلت الى دار القصر وافتقدت رجالي فوجدتهم براحة تامة والخفراء يقومون بواجبهم حق القيام . فاخذت جاو يشي معي واسرعت الى القرية فرأيت النفر بش يركب لاخذ رسائلي فوقفنا نتبعه بانظارنا الى ان توارى عنها . ولو امكنه ان يمر في وسط حديقة القصر لوفر من سفره مسافة نصف ساعة ولكن بما انه لم يمكن ذلك وجب عليه ان يدور دورة طويلة الى ان يبلغ جانب القصر الاخر حتى يمكنه ان يصل الى الجادة العمومية ولما اطمأنت افكاري بوجود كل شيء عَلَى ما يرام رجعت مع جاو يشي قاصداً محل منامي وكانت الساعة العاشرة مساء فحسبت ان بش سيصل الى المعسكر الذي قصده الساعة الحادية عشرة ونصف صباحاً . وكانت الليلة جميلة والقمر بدراً وكنا نقدر ان نرى اي شبح كان عن بعد عدة اميال

ولما وصلت الى غرفتي علمت عني ستر تي وجزمتي واضطجعت عَلَى سريري . اما شلز الجاو يش فكان قد أعدَّ له فراشاً عَلَى البلاط في نفس غرفتي ولما تمدد عليه نام للحال واخذ يقاقئني بغطيطه حتى انني لم اتمكن من النوم . فاخذت اتامل كيف ان الحظ ساقني الى بيت الكونت كروساك وعجباً هل أودت هذه الحرب بامالي التي اطمح بها الى يد غبريل نعم انني عَلَى يقين من محبتها لي لكنني اخاف من كبريائها . وهكذا بقيت اقلب هذه الافكار في مخمصة دماغي الى ان غلب عَلَى النعاس فنمت . ومع انني كنت قد نمت اكثر

من ساعتين لم اشعر بان غمض لي جفن بعد ألا وافقت عَلَى نور باهر ملاء الغرفة التي كنت نائماً فيها . ففتحت عيني واذا بالاونباشي غدك واقفا بجانب سريري والشاويش الذي كان نائماً معي واقفاً وراءه عَلَى بعد خطوتين . فتأثرت منهما للغاية لانهما سلبا راحتي وسألت الاونباشي بغيظ (ماذا تريد ؟) فاجابني (يا سيدي الملازم ان حصان بش رجع الى القلعة!!) . فصرخت مندهشاً (ماذا تقول . هل رجع الحصان دون راكبه ؟)

= نعم يا سيدي وعَلَى ما يظهر لي ان النفي قد سقط عنه !

اما الجاويش فكلمني برزانة قائلاً : لا يا سيدي لم يسقط عنه لان السرج مخضب بالدم . وهو قد رمي بالرصاص !!

فنهضت من فراشي حالاً ولبست ستيرتي وجزمتي واسرعت الى الدار فوجدت الرجال قد احاطوا بحصان بش كاظمين غيظهم وسمعت احد الجنود يقول : لقد رماه الاجلاف بالرصاص

ولما شعر الرجال بقدومي وقفوا منتظمين فوجدت ان ما قاله الجاويش كان صحيحاً لانني رأيت السرج ملطخاً بالدم . حينئذ اخذت معي ستة انفار وركبنا متتبعين اثار الحصان فعثرنا عَلَى الجثة بعد نصف ساعة من محلنا . فتريثت عن حصاني مستطلعاً اثر الحياة في القتيل دون جدوى . ثم فتشت لعلي اقع عَلَى اثر القاتل لكن تعبي ذهب ادراج الرياح . وفجأة خطر لي بان اقفز فوق السياج الفاصل بيننا وبين الحديقة فلما فعلت ذلك رأيت اثار حذاء صغير آتية وذاهبة من والى جهة القصر . فامرت الجنود بان يحملوا الجثة عَلَى ظهر حصاني ويرجعوا بها الى القرية واشرت الى شاويش الجاويشية بان يتبعني وقلت لبقية الانفار لياخذوا حصانه الى الاصطبل . وبينما نحن عَلَى الطريق انحنيت وتفرست في آثار الاقدام مرة ثانية فوجدتها صغيرة جداً حتى انني ظننتها اما اثار قدمي امرأة او ولد صغير . ولم نلاق صعوبة في اقتفاء تلك الاثار لانها اخذتنا رأساً الى البيوت التي بتنا فيها بجوار القصر ولما كنا ماشين بهدوء تام لاح لي فكر مرعب جعل الدم يجمد في عروقي = الا ان هذه الاثار هي اثار اقدام الكونت دي كروساك لانني كنت قد لاحظت قبلاً صغر حذائه غير الاعتيادي . آه هنا انجلت لي الحقيقة كالصبح وبكل سهولة قدرت عَلَى حل هذا المشكل . فالكونت بعد خروجنا من القصر نزل الى الحديقة وكمن لذلك المسكين بش الذين لم ينتبه له واطلق عليه عياراً نارياً من وراء السياج

ولما وصلنا الى البيت الذي كنا نائمين فيه وجدنا الاونباشي غدك في انتظارنا حينئذ امرته بان يصعد الى القصر . وبينما نحن داخلين من باب القصر سمعنا باباً اغلق بشدة

في الطابق الذي فوقنا . ان المهمة التي ذهبنا لاجلها كانت محزنة للغاية . ما العمل بمجان قد ارتكب جناية فظيعة يجب ان يصير عبرة لغيره

فصعدنا الدرج بعجل ولما وصلت الى باب غرفة الكونت طرقته بعنف . فاجابني صوت من داخل الغرفة قائلاً « ماذا تريد ؟

فاجبته : ارجوك ان تفتح لي يا سيدي الكونت لان لي معك كلاماً مهماً جداً يجب ان اقوله لك الآن . و بعد ان تاخر قليلاً فتح الباب يهدو فرأيناه بثياب النوم . وكاني بلهجة معاتب (ما معنى مجيئكم الي في مثل هذه الساعة . لماذا تقلقونني

فاجبته : لقد ارتكب احد الساكنين في هذا القصر جناية فظيعة اتينا لنعترف من هو ثم رمقته بنظرة حادة وقلت له : ماذا كنت تعمل في الحديقة . فلما سمع كلامي هذا فقد وجهه لونه الوردي وصار كالقطن وقال : اني لم اخرج من القصر .

ولم يكن لدي كلام اجيبه به و بينما نحن على هذه الحالة وقع نظري على شيء اسود بارز من تحت الوسادة فسحبته واذا به مسدس . ولما امتحنته وجدت ان قد اطلق منه طلقاً واحداً فقط وفي نفس هذه الدقيقة كان الاونباشي يفتش في الغرفة فعثر على حذاء صغير كان موضوعاً تحت السرير ولما نظرت اليه وجدته مبللاً وفي الواحد من كعبيه كتلة ثلج صغيرة لم تذب بعد . فنظرت اليه شزراً وسألته بغضب « لماذا تكذب علي » اما هو فرفع رأسه مفتخراً وكان قد رجع لونه اليه وظهرت ملامح الوقار والشهامة على محياه . ومع انه قد ارتكب هذا العمل الفظيع لم اقدر ان امنع نفسي عن الشعور معه والاعجاب بشجاعته وهيئته الجليلة . لكن ماذا اقدر ان اعمل وعلي واجب يجب ان اتممه . فقلت له حينئذ (لا غرو انك تعلم ما سوف يحل بك ؟)

فاحنى رأسه قليلاً وكاني بصوت عال قائلاً : اني اقتد قتلته والفخر يحملني هذا . انني لو كان في امكاني ان افعل اكثر من ذلك لاجل فرنسا المحبوبة . وكما اخبرتك قبلاً انني كنت جندياً واعلم ما سيحل بي . تم واجباتك

حينئذ امرت الاونباشي بان ياخذه . فتقدم اليه هو وشارز ور بطا يديه وراء ظهره ثم ساقاه الى الساحة التي امام القصر

ولما سمعت غبر بل صوت الجلبة التي صارت في القصر اندفعت نازلة في الدرج لترى ايانها الذي اخذ من بينه على غرة والقت بنفسها على نفرين كانا يحرسان الباب . فلما سمعت مناداتها اسرعت اليها ووضعت يدي بلطافة على كتفها وامسكت يدها وانبت بها الى

الصالون . ولم اكن اعرف كيف افاتحها بالكلام ولكن يجب عليّ ان اخبرها عاجلاً او آجلاً . واخيراً جمعت كل قوى نفسي وقلت لها . غبريل لي واجب مؤلم جداً عليّ ان اتممه . ان اباك قد قتل احد جنودنا لذلك يجب ان يموت وكما تعلمين ان الاوامر التي لدي لا تخيرني بشيء . فلما سمعت كلامي هذا صرخت صرخة شديدة اهتزت لها الغرفة وارتمت عند قدمي تتوسل اليّ لكي اخلصه من الموت فبزلت كل ما في وسعي لكي اهدي روعها لكنها ابت الاّ ان تتوغل في حزنها وكآبتها . وكانت تتوسل اليّ بكل حزن والم حتى اثرت بي كل التأثير . ولما اعيتها الحيلة اخذت تطلب مني ان اراعي عهود الصداقة التي بيننا ثم ضمت يديها معاً ورفعت امامي ورفعت وجهها الذي بللته الدموع كوردة ربيع حمراء بللها الندى نحو وجهي وطلبت مني ان اعير هذه الدموع عن ايها لمحق الوداد الذي في قلبي حتى انني كدت ان اخضع لتوسلاتها لولا تدبر بي العسكري القاسي الذي ساعدني على ان اتشدد في مثل هذه الساعة

ثم صارت دموعي تملأ وشك الانفجار من مقلتيّ فادرت وجهي عنها لكي لا اسمع توسلاتها التي تلين القلب الحجري وانظر الى وجهها الناطق بالحزن والألم الشديدين . اما هي فلما ساءت الظن في عملي هذا وحسبته دليل عداوتي وقساوتي . ولما ايقنت ان لا فائدة من وراء تذللها وتوسلاتها انتفضت كلبوة وانتصبت واقفة وابتعدت عني عدة خطوات وصارت عيناها تقدح شرر الغضب والاحتقار ثم التفتت اليّ كانها تريد ان تفترسني واخذت تضرب بولاتنا غرض الحائط ... ابعد عملي هذا صداقة يا ترى ؟ هل برهان صداقتي لها هو ان اقتل اباها قتل الكلاب ؟ من بعد ذلك وداداً . حرام علينا ان ندنس اسم الصداقة المقدس بالخيانة . كيف تجاسرت عليّ ان اهرب لها من ولوعي بصداقتها

ولما خف غليان الاضطراب الجائش في نفسها خاطبتها بهدوء ورزانة قائلاً : اتمنى من اعماق قلبي ان اخلص والدك اكراماً لك فقط ان كان لي منفذاً لذلك ولكن ان اقدمت عليّ عملي هذا سأقتل انا ولو كانت المسئلة تنتهي بموتي انا فقط لارتضيت بطيبة خاطر ولكن اباك ايضاً سوف يقتل لذلك اصبحت نجاته من الموت من رابع المستحيلات

وحينئذ لحظت انها تملأ وشك الوقوع في نوبة انزعاج وبكاء مرة ثانية فدنوت منها وسكت بيديها واخذتها الى امام صورة الجنرال دوشيسن وقلت بطلاقة كلية . غبريل لا بد من اتمام ما قلت لك وكيفما اقلب المسئلة لا اري لوالدك مفراً من الموت لانه لا يوجد وجه اخر تطلق لهذه المسئلة . الله يعلم انني اتالم الان المّ مرارة لم اذق طعمه في حياتي .

وفي المستقبل لما تحكمين عليَّ ظلماً بأني قاس ارفعي عينيك الى هذا الرسم رسم عمك — اخي جدك — وتذكري القصة التي رويتها لك عنه قبل بضع ساعات . واطلب منه تعالى ان يلين قلبك لتشفقي عليَّ وان يقدرك عَلَيَّ ان تحققي شيئاً عن حاساتي المؤلمة في هذه الساعة

اما هي فسحبت يدها من يدي وانطرحت عَلَى المقعد منتبذة مرتعشة وحاولت ان تخفي بكائها بالاتكاء عَلَى المسند . فتركتها حتى لا اشاهد حزنها ونحيبها وذهبت الى امام الشباك المطل عَلَى دار القصر فرأيت ذلك الكوفت الشيخ منتصباً امام شرذمة من الجند بكل افتخار وشفتاه تبتسم ابتسام الازدراء والكبرياء ولم ينزل عن عظمته حتى آخر دقيقة من حياته . ولما اعطى الجلاوش الامر باطلاق النار عليه تبسم قائلاً : تحيا فرنسا ! وفي هذه اللحظة عينها دوت بنادق الجنود فسمعت من ورائي صرخة قوية مرعبة قدَّر لي طالعي المنحوس ان اسمعها . ومع كوني الان شيخ هرم ترتجف اعصابي لما اتذكر تلك الدقيقة

ولما رجعت من امام الشباك رأيت غبريل ممددة عَلَى البلاط مغمى عليها . فاسرعت الى الجرس ولما مددت يدي لكي اطرقه ليأتي احد الخدم ويساعدني في تفييق غبريل قلت في نفسي الان هي الفرصة الاخيرة التي يمكنني ان اجتمع فيها بصديقتي في حياتي لذلك احب ان اودعها الوداع الاخير . فركعت امامها بحزن ووقار وسكبت احدى يديها البارودتين بيدي وقبلتها عدة امرار . ان اقسى جندي محرب لم يكن ليستحي من ذينك الوداد والالم اللذين سكبتهما بتلك القبل في يدي تلك الفتاة العائبة عن رشدها

فالان قد انتهى كل شيء وتأكدت ان صدافتي لا تنفعني فيما بعد . كيف تصادق غبريل الرجل الذي امر بموت والدها العزيز ؟ يا لحزني ! الوداع يا صديقتي غبريل . اسأل الله ان يحفظك الى الابد ويكون معك اينما كنت

وبعدما القيت نظرة محزنة عَلَى جمالها الفتان اسرعت الى الجرس وسحبت الشريط بعنف . فلبت الخادمة طلبي للحال . فاومأت اليها بان تعتني بسيدتها المطروحة عَلَى الارض ثم تركت الغرفة بعد ان جمعت كل قوى عقلي التي كانت قد تشردت . ولما نزلت الدرج لاذهب رأيت الخادم واقفاً بالباب واماثر الغيظ والحزن بادية عَلَى سحناته . وبحركة لا اقدر ان اعبر عنها نفل عَلَى الارض لما فسح لي طريقاً لاخرج . وبينما انا اركب جوادي رأيت ذلك الخادم الشيخ راكعاً امام جثة سيده ودموعه تتساقط على وجه الميت

فهذه هي الحرب المجيدة التي تمنناها يا حبيبي كارل

عين عنوب (لبنان)

مسيح فارحيان